الفصل الخامس

مقومات المجتمع : البيئة

المقصود بالبيئة مجموع المؤثرات الطبيعية والجغرافية ؛ وقد قال كثير من المفكرين ان هـذه المؤثرات هي التى تعين طبيعـة المجتمع وتكوينه . وأغلب الذين يرون هذا الرأي من الطبيعيين ، وفى مقدمتهم « أبقراط » (Epicurus) الذى نوه فى كتابه « الأهويـة والميـاه والأماكن » بصدد المقارنة بين الأسيويين والأوربيين ، بتأثر العوامل الطبيعية والجغرافية فى تكوين الشعوب والمجتمعات فقال :

« أريد بالمقارنة بين آسية وأوربة أن أبين كيف أن كلتيهما تخالف الأخرى فى كل شيء ، وأنه ليس بين الأمم التى تقطن كلتيهما أية مشابهة فى البنية . وقد يكون من التزام ما لا يلزم تعداد جميع الفروق ، بل أكتفى بأكثرها أهمية ، وأشدها بروزا للعيان ، لأعرض رأيي الذى

ارتأيته في ذلك ، فأقول : ان آسية تختلف عن أوربة اختلافاً عظيماً بطبيعة حاصلاتها جميعاً ، سواء فيها ما تخرج الأرض وما يخرج من ظهور الناس الذين يزرعونها • فكل ما يتولد في آسية يفضل ما يتولد في أوربة فضلا كبيرا في الجمال وفي بسطة الجسم • جوها أكثر اعتدالا ، وأممها أدمث أخلاقاً وأسهل قيادا ، والعلة في ذلك هو التوازن التام بين الفصول ••• فان الماشية التي ترعى في أرض آسية حسنة خصبة التكاثر الى حد مدهش ، وتربيتها ناجحة الى الغاية • وأما الناس فيها قنموهم عظيم ، يمتازون عن الأجناس الأخرى بجمال صورهم وفضل قامتهم ، ولا يختلف بعضهم عن بعض في الرواء ولا في الصورة • ويمكن أن يقال : ان مثل هذه الجهة بينها وبين الربيع نسب يكاد يكون متصلا بالنظر لتأليف فصول السنة ولطف آثارها ، ولكن لا شجاعة الرجولة ولا مصابرة المشاق ولا اجهاد النفس في العمل ولا شدة البأس كل هذه الصفات لا تنمو في مثل هذه الطبيعة ، سواء فيه الوطنيون والمستوطنون ، بل أن حب الملاهي عندهم يتغلب على ما عداه من الميول الأخرى ••• أما من جهة ضعة النفس وعدم الشجاعة فان الآسيويين اذا كانوا أقل ميلا للحرب وأكثر سلاما في الطبع من الأوربيين فعلة ذلك انما هي على الخصوص في حال اقليمهم حيث لا توجد تقلبات شديدة لا في الحر ولا في البرد بل قليلا ما يشعر بتغير الجو ، وحيث لايعترى العقل صدمات ولا يعرو الجسم تغيرات ، وتلك انفعالات

من شأنها أن تكسب الخلق وحشية وتمزج به ميلا للجماح والعصيان أكثر مما تفعل الحال الجوية دائمة التماثل . الا أن التغيرات من النقيض الى النقيض هي التى تنبه العقل الانساني وتمنعه من أن ينام فى ظلال السكون .. »[1] .

وأيد « أرسطو » رأي « أبقراط » فقال فى أثر اختلاف الاقاليم فى تكوين المجتمع : « لكي يلمّ المرء بهذه الصفات ما عليه الا أن يطرح نظره الى أشهر المدائن الاغريقية والى بقية الأمم المختلفة التى تتقاسم سطح الأرض ليرى أن الأمم التى تسكن الأقاليم الباردة حتى فى أوربة هي على العموم مملوءة بالشجاعة ولكنهم على التحقيق أقل ذكاء فى العقل ومهارة فى الصناعة ، وبهذه المثابة يحتفظون بحريتهم خير احتفاظ ، ولكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام ، ولم يستطيعوا مطلقا ان يقهروا جيرانهم . أما فى آسية فالأمر على ضدّ ذلك ، فان أممها أكثر ذكاء وقابلية للفنون ، ولكنهم تنقصهم قوة القلب ويصبرون على البقاء تحت نير العبودية المؤبدة . أما الجنس الاغريقى الذى هو بموقعه الجغرافى وسط بين هؤلاء وهؤلاء فانه يجمع صفات الطرفين ويجمع بين الذكاء والشجاعة ؛ يعرف كيف يجمع بين حفظ الحرية وبين تأليف حكومات غاية فى النظام . فهو جدير اذا توحدت

(١) سانتهلير ، ص ٩٢ .

كلمته فى حكومة واحدة ان يفتح العالم . »[٢] .

ولم تكن هذه الآراء غريبة على مفكرى الاغريق الآخرين ، فقد جاء فى أساطيرهم أن الشمس بحرارتها الكاوية ، هي التى أعطت الاحباش لونهم ، وهي التى أوجدت الصحارى الشاسعة ؛ وأرجع « هيرودوت »(Herodotus) حضارة المصريين الى تأثير العوامل الجغرافية ؛ وكذلك فعل « ثوسيديت » (Thucydides) فى تعليل تفوق الاغريق فى الحضارة .

وأوضح « أبن خلدون » فى « المقدمة » أثر البيئة فى تكوين المجتمعات فقال : « ... فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبوءات فانما توجد فى الأكثر فيها . ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل انما يختص بها أكمل النوع فى خلقهم وأخلاقهم .. وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فنجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتنازعون فى استجادة الآلات والمواعين ويذهبون فى ذلك الى الغاية ... واما الأقاليم البعيدة عن

(٢) المرجع عينه ، ص ٩٦ .

الاعتدال ... فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عراة من اللباس ... وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الاقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والفياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة والسبب فى ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك . »(٣) .

وبتجدد النشاط الفكرى فى النهضة الأوربية ، عادت هذه الآراء الى الظهور من جديد ، وراحت تجارى مقتضيات الحياة الجديدة باسلوب العلم ، حتى تحولت الى نظرية عامة حاول أصحابها أن يفسروا بها سيرة الانسان ونظام المجتمعات وتكوينها . ويعتبر « بودن » (Jean Bodin) وهو فى الطليعة من مفكرى العصر الحديث ، ممن أشار فى كتابه « الجمهورية » ، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، الى أثر البيئة فى تباين الأفكار وقواعد الأخلاق بين الأمم ، معارضا بذلك القائلين بعالمية الأسس الفكرية والأخلاقية .

وجاء بعده « مونتسكيو » فأيد صواب ما ابانه مفكرو الاغريق

(٣) المقدمة ، ص ٨٢ .

والمفكرون الذين سبقوه ، بخصوص أثر البيئة فى حياة الأمم ، وتوسع بهذا الرأي بان دلّل بالشواهد على بعد أثر العوامل الجغرافية فى ثقافة كل أمة . وصنف « مونتسكيو » الحكومات فى ثلاثة أصناف هي : الجمهورية والملكية والمستبدة ؛ وأرجع كل صنف الى الأصول الأخلاقية والنفسية التى تقومها العوامل الجغرافية والعوامل الاقتصادية المتأثرة بالعوامل الجغرافية . وأشار على الخصوص ، الى ما تثيره العوامل الطبيعية من الرهبة والقلق وعدم الاستقرار فى نفوس الناس فى بعض الأقاليم بحيث تضعفها فتحملها على الخضوع لنظام الاستبداد وللحكم المطلق ، كما هو شائع فى جهات من الشرق .

وجاء من بعده « بوكل »(Henry Thomas Buckle) المفكر الانكليزى ، فأسهب فى كتابه(*Civilization in England*) فى بيان أثر البيئة فى تكوين المجتمعات باختلاف طبيعة التربة والمناخ وما ينجم عن ذلك من اختلاف الحاصلات الزراعية ونظام الانتاج وتراكم الثروة . فقال ان قيام حضارة القرون القديمة فى المنطقة الممتدة بين الصين ووادى النيل ، مرجعه الى ما امتازت به هذه المنطقة من خصوبة التربة ووفرة المياه اللذين بفضلهما ازدهرت الحضارة فى مصر وفى الهلال الخصيب وفى الهند والصين ؛ واستشهد على ذلك بتاريخ العرب والمغول ، فقال ان هذين الشعبين لو لم يخرجا من صحاريهما القاحلة الى جهات من هذه المناطق الخصبة ، لما استطاعا أن يجتازا دور

البـداوة .

وقال « بوكل » ان أثر البيئة يظهر أولا فى تعيين نوع الغذاء ومقداره ؛ ومن ثم فى تأثير طبيعة البلاد فى نفوس الناس . حتى لقد زعم أن فى استطاعتنا أن نستدل على حضارة الأمة واستعداداتها من غذاء أفرادها وطبيعة بلادها ؛ باعتبار أن الغذاء تنحصر مهمته فى أمرين : حفظ حرارة الجسم بتوليد حرارة يستعيض بها عما يستهلكه ؛ وضمان نمو الجسم وصيانته بتوفير ما تحتاج اليه الخلايا من المواد الآزوتية . وتكون الافادة من الغذاء مولد الحرارة باستنشاق الأكسجين لاحراق الكاربون فيه . ولما كان الكاربون يتفاعل مع الأكسجين بنسبة ثابتة ، فان مقدار الحاجة اليه تتناسب عكسيا مع درجة الحرارة ، أى ان حاجة الانسان الى الغذاء الغني بالكاربون تزداد بنسبة انخفاض درجة الحرارة . ولهذا نرى الاسكيمو فى أقصى الشمال ، يحفظون حرارة الجسم بشرب زيوت السمك ، بينما يقتات سكان البلاد الحارة بالثمار والخضروات ، التى لا يزيد ما تحتوى عليه من الكاربون على سدس ما تحتوى عليه الزيوت ؛ ولو حاول الاسكيمو أن يعيشوا على الثمار والخضروات ، أو حاول أهل البلاد الحارة أن يقتاتوا بشرب الزيت ، لكان الموت مصيرهما .

وقال « بوكل » ان الأغذية الغنية بالكاربون ، هي على وجه العموم ، نادرة الوجود لا تتوافر للانسان الا بعد كدح وعناء ، بعكس

الثمار والخضروات والحبوب التي يقتات بها سكان البلاد الحارة والمعتدلة . ومن هنا كان أثر الأغذية في تزايد النفوس وأحوال الشعوب وأنظمة المجتمعات ؛ فاذا توافرت الأغذية وسهل الحصول عليها واستطاع الانسان أن يحيا باليسير منها ، تزايدت النفوس وتضاءلت أجور العمل وهبطت قيمة الفرد ومال الناس الى الخنوع وغلبتهم الذلة والمسكنة وتراكمت الثروة في جانب وشمل البؤس المجموع . وتلك حقيقة تبدو للعيان ظاهرة في جميع الحضارات القديمة التي قامت على ضفاف الأنهار وفي وديانها الخصيبة وافرة الخيرات ، حيث كان الناس يقتاتون بالارز والذرة والتمر والثمار والخضروات وهي وافرة مبذولة . فالارز في الهند يعود بستين ضعفاً ، والذرة في صعيد مصر تعطي أربعين ومائتي ضعف ، والذرة البيضاء في المكسيك وبيرو تعود باربعمائة ضعف ، والتمر في بلاد العراق يبلغ من الوفرة بحيث يقدم طعاما للماشية والدواب . وكل هذه الأغذية والثمار ، على وفرة منتوجها ، لا تحتاج في زراعتها وفي العناية بها الى غير القليل من العناء ، فالنخيل تكاد تنمو من تلقاء نفسها ، والأرز يكفي أن تبذر بذوره فيجني حاصله . ولقد بلغ من توافر الخضروات في أقطار الشرق ، أن العرب وجدوا في الأسكندرية عند احتلالهم مصر ، نيفا واربعة آلاف شخص يعرضونها في الأسواق .

وكان طبيعياً ، كما يقول « بوكل » ، أن ينجم عن وفرة الغذاء

واعتدال الجو وارتفاع الحرارة ، زيادة فى النفوس ، حتى كانت هذه الأقاليم أشد بقاع الارض ازدحاما بها ، كما هو مشهود الآن فى الصين وفى الهند ، وكما جاء فيما ذكره الأقدمون عن مصر ؛ فقال هيرودوت انه كان فيها عشرون ألف بلدة مزدحمة بالسكان ؛ وقال « سيسولتس » (Diodorus Ciculus) الذى زارها قبل عشرين قرناً ، أنها كانت أشد البلدان ازدحاما بالسكان لأن وفرة الغذاء والاستغناء عن اللباس يسر للفقراء ان ينجبوا المزيد من الأولاد وما كانوا يحتاجون الى كساء ، حتى أن أحدهم كان لا يكلف أبويه حتى بلوغه الرشد ما يزيد على عشرين درهما . وكان لا مفر من أن يؤدى تزايد النفوس وهذا الرخص فى المعيشة ـ فى رأي « بوكل » ـ الى انخفاض أجور العمل وارتفاع نسبة الأرباح التى بلغت فى الهند ، مثلا ، ستين فى المائة ، فتراكمت الثروة فى يد الأقلية الحاكمة وغمر الفقر جمهور الناس وبلغت الفوارق بين الطبقات أقصى الحدود . فكان الفقير ـ فى الهند ـ اذا جلس الى جانب « برهمى » بترت ساقاه ، واذا ذكره بلهجة خالية من الاحترام حرق فمه ، واذا واجهه بالاهانة قطع لسانه ، واذا استمع الى الكتاب المقدس صبّ زيت مغلي فى أذنيه ، فاذا حاول حفظ عبارة منه كان الموت جزاءه . وحرمت القوانين على الفقراء فى الهند جمع الثروة وفرضت عليهم عبودية وراثية لا خلاص منها ؛ وحرمت شرائع المصريين القدماء على الفقراء تغيير مهنهم والتدخل

بشؤون الحكم وامتلاك الأرض . وهكذا انحط الجمهور الى دركة البهائم وتضاءلت قيمة الفرد حتى استهان الحكام بجهود البشر وأرواحهم ، فسخر الفراعنة مثلا ألفي رجل ثلاث سنوات لنقل كل حجر من أحجار الاهرامات من محاجرها الى أماكن الانشاء ، حتى استغرق بناء الهرم الكبير جهود ثلثمائة وستين ألف عامل مدة عشرين سنة ، وما كان الا قبرا لفرد . وكذلك لم يعبأوا بان يفنى نيف وعشرين ألف عامل في حفر قناة البحر الأحمر . وكان الاسراف في جهود الناس مظهرا من مظاهر الحظارات القديمة في جميع البلدان الحارة والمعتدلة : ففي المكسيك استلزم بناء قصر لأحد ملوكها جهود مائتي ألف عامل ، وفي بيرو اشتغل في انشاء قصر الملك عشرون ألف عامل زهاء عشرين عاما . وهذه كلها شواهد لا نجد لها مثيلا في البلدان الباردة التي يكسب الناس فيها عيشهم بعد عناء وكدح ، ويضطرون فيها الى ضبط نسلهم خشية الاملاق ، ويعتزون بحريتهم ويقيمون لأنفسهم وزنا .

وقسم « بوكل » الشعوب باعتبار تأثير البيئة الى قسمين : الأول يغلب فيه الخيال ، كما هو الحال في البلدان الحارة ، حيث تكون الطبيعة طاغية جبارة فتثير في نفوس الناس الرعب والفزع وهما منبع الخيال ، وتيسر لأهلها أسباب العيش دون عناء فتوحي اليهم الشعور بالتفاهة والحقارة ، فيحيون حياة الاتكال ولا يرون أنفسهم أهلا لاكتشاف

خفايا الوجود واستنباط سننه . اما القسم الثاني فيغلب فى الأصقاع الباردة ، حيث لا يكون للطبيعة فضل ظاهر فى كسب الناس أقواتهم لأنهم يحصلون عليها بعد جهد وعناء ، وحيث لا يكون فى معالم البيئة من مظاهر القوة والجبروت ما يثير الرعب فى النفوس أو ما يوحي الى الانسان الشعور بالتفاهة والحقارة ، فينشأ الانسان معتمدا على نفسه معتزا بها وتنمو فيه قوة التفكير وتحكيم العقل والنزعة الى اكتشاف أسرار الطبيعة وتسخير مرافقها .

وذكر « بوكل » الهنود القدماء مثلا للقسم الأول والاغريق مثلا للقسم الثاني ، فاستشهد بالفارق العظيم بين حضارة الهنود التى غلب فيها الخيال فى رأيه ، وحضارة الاغريق التى غلب فيها الفكر . فقال ان الانسان فى الهند ، كان معرضا على الدوام لأخطار الزلازل والزوابع والفيضانات والأوبئة والحيوانات المفترسة والحشرات الفتاكة ، حتى كادت أن تغلق بوجهه أبواب النجاة ومثل أمامه شبح الموت فأثار فى نفسه بواعث الرعب الدائم ، فلم يجد مخرجا له الا أن يوكل مصيره الى القوى الخارقة التى لا حول له حيالها ولا قوة . وحيثما يغلب الشعور بالخطر والشعور بالعجز عن دفعه ، يقف عمل الفكر ويغلب الخيال ، فتسود الأضاليل والأوهام ؛ وتلك حقيقة ، كما يقول « بوكل » تتجلى فى آداب الهند وفى أديانها وفنونها . فأدباء الهند ومفكروها كان جلهم من الشعراء ، لأن الشعر كان أوقع فى نفوس

الناس ؛ فوضعت الآداب وكذلك العلوم مثل قواعد اللغة والقانون والتاريخ والطب والرياضيات والجغرافية ، كلها شعرا ؛ وفاضت الأشعار بمبالغات لا يقبلها العقل ولا يرتضيها الادراك السليم ؛ وغلب الاهتمام بالماضي المجيد وبمناقب الأجداد وجلائل العصر الذهبى على الحاضر والواقع ، وذلك شأن أهل الشعر فى غالب الأحوال لأنهم يرجحون الحديث عن كل ناء ومجهول . وذكر « بوكل » من الأمثلة على اغراقهم بالمبالغة : ما زعموه من أن عمر الانسان العادي فى العصر الذهبي كان لا يقل عن ستين ألف سنة ؛ وأن الأخيار من أهل ذلك العهد كانوا يبلغون المائة ألف سنة ؛ وأن أحد ملوك هذا العصر ، تولى الملك وعمره مليون سنة ، فحكم ستة ملايين وثلثمائة ألف سنة ، ومن ثم تنازل عن العرش ليقضى شيخوخته ، التى دامت مائة ألف سنة ، فى ظل السكينة والهدوء . ولقد أدعوا أن شريعة « مينو » وضعت منذ ألفي مليون سنة ، بينما الحقيقة أنها لم يمضي على وضعها أكثر من ثلاثة آلاف سنة . وهذا الاغراق فى الخيال لم يكن — فى رأي « بوكل » — الا مظهرا من مظاهر تضاؤل قابلية التفكير وضعف الادراك .

واستشهد « بوكل » فوق ذلك بما بدا من انعكاسات الفزع فى آلهة الهنود القدماء : فالآله « سيفا » يمثل كائناً هائلاً مرعباً تحيط به الأفاعى ، وفي يده جمجمة انسان ، وفى جيده قلادة من عظام البشر ،

له ثلاث عيون ، وعليه جلد نمر ، وهو يبدو مهتاجاً كالمجنون . اما امرأته « دوركا » ، فجلدها أزرق غامق ، وكفها أحمر قان ، اشارة لتعطشها لدماء البشر ، ولها أربع أذرع فى احداها جمجمة عملاق ، ولسانها متدل وجيدها مزين بجماجم البشر ؛ وهكذا بقية الآلهة .

ولقد كان الاغريق الذين ابدعوا الفلسفة وبرعوا فى العلوم وفى الفنون ونظم الاجتماع ، واقعيين على عكس الهنود والعلة فى ذلك فى رأي « بوكل » ، انما ترجع الى طبيعة بلادهم التى كانت على نقيض طبيعة بلاد الهنود .

* * *

وكان « هربرت سبنسر » من أشهر مؤيدى هذا الرأي بعد « بوكل » ، ولكن موضوع البيئة وأثرها فى تكوين الانسان احتل مقامه العلمي بعد ظهور « دارون » الذى وضع نظرية النشوء والارتقاء على اعتبار أن البيئة هي العامل الفعال الذى يقرر بقاء النوع وتطوره . وبدت نظرية البيئة منذ ذلك الحين معارضة لنظرية الجنس ، فقال « كرانت ألن » (Grant Allen) ، أحد تلامذة « هربرت سبنسر » ومن أشهر أنصار نظرية البيئة :

« ان التباين بين أمة وأخرى ، سواء فى الادراك والطباع أم فى الأخلاق والفنون والتجارة ، لا شأن له بأسرار الجنس وخصائصه ؛

وانما مرجعه الوحيد ، ما تعرضت له كل أمة من المؤثرات الطبيعية • فان كان حقا ـ كما هو باد للعيان ـ أن الشعب الفرنسى يختلف فى الظاهر عن الصينيين ، كما يختلف أهل « همبرك » عن أهل « تمبكتو » ، فان هـذا الاختلاف المشهود انما يرجع بأسـره الى تباين مواقعهم الجغرافيـة • فلو أن الذين أقاموا فى « همبرك » توجهوا فى البدء الى « تمبكتو » لما تميزوا الآن عن الزنوج أشباه البرابرة ، المقيمين الآن فى هذه المدينة الأفريقية • ولو أن أهل « تمبكتو » توطنوا فى الأصل فى « همبرك » ، لكانوا الآن تجارا من البيض يتعاطون تجارة رائجة فى صنوف النبيذ والخمور •• واذاً ، فان عوامل التباين بين المجتمعات يجب ان تستقصى فى المعالم الجغرافية الثابتة فى البر والبحر ••• ، فهي التى جبلت كل شعب على وجه البسيطة بما جبل عليه ، وصيرته الى ما صار اليه • »(٤) •

فلما جاء « راتزل » (Friedrich Ratzel) الجغرافى الجرمانى ، عقيب ذلك ، كان هـذا الرأي قـد بلغ من الشـيوع بحيث حمل « راتزل » على وضـع علم جـديد أسـماه « جغرافـة الانسـان » (Anthropogeography) ووضع فيه كتابا بمجلدين ، أوضح فيه تأثير البيئة فى توجيه الثقافة ، وفسر انتشار الانسان على سطح الارض وقيام الثقافات المتباينـة تفسـيرا جغرافيـا ، معتمدا على « واكنـر »

(٤) James ، ص ١٨٠ •

(Moritz Wagner) صاحب نظرية تنوع الأجناس بتأثير الهجر والعزلة • واشتهر « راتزل » باقواله المأثورة فى تأثير البيئة ومنها قوله : ان الانسان ليس الا قطعة من الأرض التى يحيا فيها •

وأشتهر بعد « راتزل » المفكر الفرنسى « ديمولن » (Edmond Demolins) ومن مؤلفاته فى هذا الموضوع كتاباه (*Histoire de France*) فى أربعة مجلدات ، « وسر تفوق الانكلو سكسون » (*Aquoi Tient la supériorité des anglo—saxons*) وفيهما تناول موضوع أثر البيئة والعوامل الجغرافية فى حياة الأمم ، وهو الموضوع الذى اطلق عليه أسم « الجغرافية الاجتماعية » (Sociography) • وقال « ديمولن » ، ان الانسان لو أعاد سيرته الأولى من دون ان يتبدل وجه الأرض ، لأعاد التاريخ نفسه من دون تحوير ؛ وذلك لأن طبيعة أصقاع الأرض المتباينة لابد أن تؤثر فى قيام المجتمعات فتخرجها على صورتها الحاضرة(٥) •

وعلى أساس التفسير الجغرافى لنشوء المجتمعات وتطورها ، يقسم أصحاب نظرية البيئة ، تاريخ الانسان الى ثلاثة أدوار : الدور الذى قامت فيه الحضارة على ضفاف الأنهار ، وهو يشمل تاريخ الانسان فى وادى النيل وفى الهلال الخصيب وعلى ضفاف الكنج واليانكتسى ؛ والدور الذى قامت فيه الحضارة على سواحل البحار ، ويشمل

(٥) Marret ، ص ٩٨ •

الحضارات التى قامت فى شطوط البحر الابيض المتوسط مثل حضارات الفينيقيين والاغريق والرومان والعرب فى اسبانية ؛ ودور حضارة المحيط الأطلنطى ، وهو دور الحضارة الأوربية الحاضرة • ويرون أن تاريخ الانسان سوف يبدأ دورا جديدا بعد أن تتم له السيطرة على المحيط الهادى ، فيتحول مقام الحضارة الى الشرق الأقصى ، الى أميركة والصين والهند واليابان وأوستراليا

ويقول هؤلاء ، أن طبيعة البرارى والبحار هي التى أوجدت البداوة وما لازمها من العادات والتقاليد والنظم • ويقولون ان التحول من أدوار البداوة والخروج من الصحارى فى موجات متعاقبة ، لم يكن الا نتيجة تحولات جغرافية متناقضة ؛ فقد تتعاقب سنين يهطل فيها المطر غزيرا ، فيكسو العشب سطح الأرض فتتكاثر الانعام والماشية وتتزايد النفوس ، ثم تعقبها سنين قحط لا يجد فيها سكان البادية مفرا من الموت المحقق الا أن يهيموا على وجوههم ويهجروا أوطانهم الى البلدان القريبة منهم • وفى حالات مثل هذه ، خرج الساميون من جزيرة العرب فأنشأوا لهم تاريخاً جديدا وأقاموا مجتمعات ونظماً لا تمت بصلة الى حياتهم الأولى • وبمثلها أيضا ، خرج المغول من صحارى آسية الوسطى وانتشروا فى أطراف الصين والهند وايران وفى الشرق الأدنى •

ويفسرون التباين بين ما أوجدته شعوب أوربة الشمالية من النظم

الاجتماعية ، وما أوجدته شعوب أوربة الوسطى والجنوبية ، باختلاف بيئاتها الأصلية . فشعوب أوربة الشمالية عاشت فى غابات كثيفة كانت حياتها فيها كفاحا متصلا ؛ بينما شعوب أوربة الوسطى والجنوبية ، جاءت اليها من برارى آسية وأفريقية ، حيث عاشت حياة بداوة ورعاية . وكان من أثر البيئة ـ فى رأيهم ، أن أختارت هذه الشعوب أوطانها الجديدة فى أصقاع تستطيع أن تعيش فيها حيواناتها . فالشعوب التى تمت فى الأصل الى آسية ، احتفظت بتربية الحيوانات التى جاءت بها من آسية ولم تجاوز المناطق التى تستطيع أن تحيا فيها هذه الحيوانات . فالذين يتكلمون الفرنسية من أهل سويسرة مثلا ، لم يتجاوزوا حدود بلدة « سيون » حيث تبدأ منطقة الناطقين بالألمانية ، وبلدة « سيون » هذه هي نهاية المنطقة التى ينمو فيها البلوط . ويقولون ان من أثر البيئة أيضا ، أن كثيرا من الاصقاع تخلو من السكان على شدة خصوبتها ووفرة مياهها ، بسبب أن مناخها يساعد على تكاثر الحشرات الفتاكة ، كما هو شأن « أوغنده » بأفريقية ، حيث تكثر حشرة « تسي تسي » التى تحمل مرض النوم(٦) .

ويشيرون فى هذا الخصوص أيضا ، الى أثر الموقع الجغرافى فى الأمم وطبيعة المجتمعات ، باعتبار ان موقع البلدان هي التى تقرر مدى اتصالها بالعالم وكيفية هذا الاتصال وأغراضه : المتاجرة أو الهجرة

(٦) Newbegin ، ص ١٦٢ و ١٩٢ .

أو الحرب ، وكل ذلك يؤثر فى أوضاعها السياسية وفى ثقافتها وسبل الحياة فيها ويقرر وجهة تاريخهـا . فتاريخ العـراق ومصر وفينيقية والاغريق واسبانية مثلا ، انما تقرر فى رأيهم بحكم مواقعها الجغرافية : فمجاورة العـراق لجزيرة العـرب جلبت اليه السـاميين فكان مهـد حضارتهم ، ووقوعه على طريق الفاتحين من الشرق والغرب ، جعلته سـاحة منازعاتهم وحروبهم ؛ ومثل ذلك جرى لمصـر أيضا . اما الفينيقيون فقد شذوا فى حياتهم عن بقية الساميين ، لشذوذ موقعهم الجغرافى الملائم للتجارة . وحضارة الاغريق ، يرجع الفضل فيها فى رأيهم الى مـوقع البلاد الجغرافى الذى هيـأ لهم الاتصـال بالايجيين والمصريين وبقية أمم الشرق الأدنى . أما اسـبانية ، فان قربهـا من أفريقية وتوالى هجمات البرابرة عليها وقيام جبال البرتة عائقا للاتصال الميسور بينهـا وبين بقيـة جهات أوربة حال دون مجاراتهـا البلدان الأوربية الأخرى فى مضمار التقدم بالرغم من توافر أسباب الحضارة فيهـــا .

وأخيرا ، يذكرون أهمية توافر المعـادن أو ندرتها فى تقريـر تاريخ المجتمع ونظامه ، وهو أمر يتعلق بالبيئة وبطبيعة البلاد الجغرافية ، وليس أدل على أهمية المعادن فى تاريخ الأمم ـ كما يقولون ـ من تفسير أدوار التاريخ على أساس المعادن التى استعملها الانسان فى صنع أدواته وآلاته . ولقد تفوقت كثير من الشعوب على غيرها بسبب أن

سلاحها كان من معدن أكثر صلابه مما تيسر لأعدائها . وتاريخ انكلترة الحديث ، يرجع الفضل فيه فى الدرجة الأولى فى رأيهم ، الى موقعها الجغرافى والى وفرة الحديد والفحم الموجود فيها قريبا بعضه من بعض . وكثير من أقطار الأرض تقرر مصيرها بسبب وجود المعادن فيها ، كما هو الحال فيما آلت اليه أفريقية الجنوبية بعد أن أكتشف فيها الماس والذهب ، وكذلك ألاسكا وأوسترالية[٧] .

* * *

ونظرية الستة هذه ، تعتمد فى الأساس على « الطبيعية » ، وهي فلسفة تقوم بشتات من الآراء ووجهات النظر ، حتى لتختلط فيها المثالية والمادية ، فتبدو فى بعض وجهاتها موافقة للفلسفة المادية ، وتبدو فى وجهاتها الأخرى متأثرة بالمثالية ، تحت ضغط الظروف التى تقوم فيها والمصالح التى تلتزمها ، بيد أنها تجلت على أحسن صورها فى المادية الميكانيكية . وقد صور « روسو » وهو متأثر بالطبيعية ، انسان الطبيعة ومجتمع الطبيعة خلواً من المفاسد التى تنشأ بتأثير عوامل الحضارة المصطنعة . ونادى الطبيعيون بحقوق الانسان الطبيعية فى نضالهم ضد استبداد الطغاة وجور الحكومات ، وكان لهم أثر ظاهر فى توجيه الحركات السياسية قبيل الثورة الفرنسية وبعدها ، وما زلنا حتى اليوم ، نسمع النداءات التى تقول بحقوق الانسان الطبيعية .

(٧) Newbegin ، ص ١٩ ؛ و ٢٣١ .

وكان طبيعيا أن تعتبر البيئة فى « الطبيعية » العامل الرئيسي الفعال فى تكوين حياة الانسان وفى توجيهها ، لأنها أعظم مظاهر الطبيعة شخوصاً وأبعدها أثراً ؛ وكذلك أن تعتبر أحكام البيئة فى الحياة العامة ثابتة ونافذة بالضرورة ، ثبوت قوانين الفيزياء مثلا لانها وجه من وجوه الطبيعة .

ولقد كان من خصائص « الطبيعية » فى الاجتماع ، أن تميل الى مذهب « الفردية » ، باعتبار أن الفرد هو العنصر المتأثر بأحكام البيئة ؛ وان تعارض الأحكام الاجتماعية لأنها أحكام تراها مصطنعة تمليها ارادة العناصر المتحكمة فى المجتمع تنفيذا لمصالحها الخاصة وصيانة لها . وكان من خصائصها أيضاً ، أن تميل الى الاعتدال ، فتحتل مقاما وسطا بين دعاة الحقوق الموروثة من النبلاء الذين زعموا أنهم أحق بالحكم لأنهم أكثر أهلية له بفضل الخصائص الموروثة التى يمتازون بها عن جمهور العامة ، وبين الثوريين الذين يريدون أن يقتلعوا النظم التى تقوم بهضم حقوق الشعب والتحكم بشؤونه بالقوة ليقيموا فى مكانها نظماً تتمثل بها ارادة الشعب ومصالحه . ولقد تجلت نزعة الاعتدال هذه فى « الطبيعية » فى آراء « مونتسكيو » الذى كان يفاخر باعتداله ،على الرغم من أنه بحملته على الاستبداد والرق والتعصب الدينى والضرائب المرهقة والقوانين الجائرة وباعجابه العظيم بنظام الحكم فى انكلترة وقف فى صفوف المفكرين الأحرار فى عصره ، الا أنه لما عرض مسودة

كتابه « روح القوانين » على جماعة من اصحابه لمعرفة رأيهم فيها ـ وكانت عادة مألوفة بين المفكرين والكتاب فى ذلك العهد ـ لم يحبذوا نشرها ، وقال « هلفاتيوس » ان روح الاعتدال التى تجلت فى آراء « مونتسكيو » فيها هي التى حملته على معارضة نشرها ، لأنها تفسد أثرها وتذهب بقيمتها(٨) .

وكان طبيعيا ان تتبنى الطبقة الوسطى ، وهي فى مستهل حياتها ، نظرية البيئة التى تؤيد فكرة الفردية وتعارض التدخل الحكومي فى تنظيم الحياة العامة وتوجيهها ، بحكم صلتها الوثيقة بالطبيعية التى انبثقت منها . ولقد تجلت صلة « الفردية » بنظرية البيئة فى الآراء التى عرضها « هربرت سبنسر » فى أشهر مؤلفاته : *Social Statics* و *Principles of Sociology* و *The Man Versus The State* فصور فى كتابه الأول ، المجتمع المثالى الذى يقوم بالانسجام التام بين الفرد ومحيطه ، هذا الانسجام الذى يتحقق فى رأيه فى تضييق مجال التدخل الحكومي فى شؤون الفرد تدريجيا من جهة ، وتوسيع مجال تمتع الفرد بحقوقه الطبيعية توسيعاً تدريجياً من جهة أخرى . وآعتبر « سبنسر » الحكومة شراً لابد منه فى المجتمعات البدائية والعسكرية منعاً للاعتداء الذى هو أكبر اعداء السعادة البشرية ؛ على أن سلطان الحكومة لابد وأن يتضاءل بالضرورة كلما تقدم المجتمع وأرتقى ، حتى

(٨) راجع Montesquieu فى دائرة المعارف البريطانية

اذا بلغ الطور الذى يتحقق فيه الانسجام فى المصالح ويتم فيه التوافق بين نظام المجتمع وأحكام الطبيعة زالت الضرورة الى الحكومة وتحقق المجتمع الذى هو خلو من كل سلطة • وكان من رأي « سبنسر » أن تلغي الحكومة وظائفها تدريجيا كلما تدرج المجتمع فى مضمار التقدم فتترك أولا ميدان الاقتصاد للنشاط الفردى ، لأن الانسان وهو اقتصادي بالطبع ، كما يقول « سبنسر » ، فى غنى عن كل توجيه حكومي فى ادراك مصالحه الاقتصادية وتحقيقها • وليس فى مصلحة المجتمع ، فى رأي « سبنسر » ، أن تنشىء الحكومة مؤسسات صحية أو عمرانية أو أن تعنى بالصحة العامة والعمران بأي وجه من الوجوه ، لأن ذلك تدخل فى شؤون الطبيعة وعرقلة لسير أحكام البيئة التى من شأنها أن تبقي الأصلح وتزيل الضعيف الذى لا نفع فيه • وليس من شأن الحكومة كذلك ، أن تفرض التعليم وترعاه ، لأن هذا معناه تدخل فى حقوق الآباء الطبيعية الذين هم أدرى بمصلحة أبنائهم منها ؛ ولأن غير المتعلم ليس أقل نفعاً للمجتمع من الولد المتعلم اذ ليس هنالك علاقة أساسية بين التعليم والصلاح ، فقد يكون شر المتعلم للمجتمع أعظم من شر الجاهل ، فليس التعليم سبيلا الى القضاء على الجرائم • وخير للحكومة أن تترك الفرد معرضاً للطبيعة القاسية لأنها بقساوتها تزيده قوة واحتمالا وأهلية للبقاء • والانسان انما يتقدم بما يبذل من مجهود فى مسعاه لمجاراة أحكام البيئة وضروراتها •

وكان طبيعياً أن تروج مثل هذه الآراء فى فجر الثورة الصناعية ، لأنها كانت تعكس فى الواقع روحية الطبقة الوسطى وهي تسعى الى مقام السلطة عن طريق جمع الثروة ، وتعبر عن أمانيها فى الحرية فى تلك الفترة التى كانت تحتاج فيها الى هذه الحرية التى تيسر لها سلب حرية الآخرين والتحكم بشؤونهم . ولا تزال بقية من هذه الآراء تسمع بين حين وآخر ، فى المجتمعات التى لا تزال الطبقة الوسطى فيها ترى أن من مصلحتها تشجيع روح الفردية فى الاقتصاد وترديد نغمة الحقوق الطبيعية التى صارت فى خدمتها منذ أن أعتبر حق التملك فى قائمة هذه الحقوق .

* * *

ولعلنا نستطيع الآن ، بعد هذا العرض الموجز لنظرية البيئة ، أن نستعرض رأي نقادها ، لنرى اذا كان يصح أن تعتبر البيئة العامل الأساسي الحاسم فى تقويم المجتمع . فبالرغم مما لجغرافية الانسان من المقام فى علم الانسان ، باعتباره العلم الذى يبحث فى شؤون الانسان القديم ، وعلى الخصوص الانسان البدائى الذى كان للبيئة فى حياته أثر ظاهر ، الا أن العلوم الاجتماعية تؤيد الآن بوجه عام ، تناقص أثر البيئة فى حياة الانسان الحديث ، بل انها تذهب الى القول بان أثر البيئة يتناسب عكسيا مع درجة ثقافة الانسان ومبلغ نصيبه من الحضارة .

وأول ما يؤخذ على أصحاب نظرية البيئة ، اغفالهم فعالية

الانسان ؛ فقد اعتبروه عنصرا منفعلا تجاه مؤثرات البيئة وغفلوا عن الحقيقة الأساسية التى تثبت بان الانسان وهو الحيوان الوحيد الذى يختص بالقدرة على التفكير ، يمتاز عن سائر الحيوانات بقدرته على تبادل التأثير مع البيئة فيكيف حياته لأحكامها أو يكيف البيئة نفسها لضرورات حياته . وبهذا الاعتبار كان الانسان الحيوان الوحيد الذى استطاع أن يحيا فى كل البيئات ؛ وبهذا الاعتبار أيضا كان من الخطأ الحكم بتأثير البيئة فى حياة الانسان من دون تعيين الدور الذى وقع فيه هذا التأثير وزمانه ، لأن الانسان انما يتأثر بالبيئة فيكيف حياته لها أو يكيف البيئة لحياته بحسب ثقافته ومقامه فى الحضارة فالبحار التى عزلت الجزر البريطانية فى العهود الغابرة عن العالم المتمدن ، انقلبت الآن بفضل تقدم الثقافة وأسباب الحضارة الى طرق أوصلتها باجزاء العالم كلها ، فى حين أن طبيعة الجزر البريطانية لم يحدث فيها أي تبدل ظاهر . والأنهار التى كانت تفصل قطرا عن آخر فيما مضى ، اصبحت الآن حلقات اتصال بين تلك الاقطار وتبدل أثرها وخطرها فى حياة الناس بحسب تبدل طراز الحياة ووسائلها .

والانسان ، حتى فى أطواره البدائية ، وأن اضطر أن يجارى أحكام البيئة لضعفه تجاهها ولكنه كان فى كل أطواره يمتاز عن الحيوان بانه كان يبدع الوسائل والعدد التى تيسر له مغالبة عوامل البيئة وتيسر له البقاء ، فهو لم يستسلم لأحكام البيئة مثل سائر الحيوانات وانما

أوجد الوسائل والآلات والأدوات التى استطاع بها أن يكيف البيئة لضرورات حياته ويستغل مرافقها وقواها لتوفير حاجاته . ويقول « كوردن تشايلد »[٩] ان الطعام كان الحاجة المطلقة التى ركبت الانسان وحملته على السعى للتفتيش عنها ؛ ولقد احرز الانسان أول انتصار على الطبيعة لما باشر انتاج قوته بان راح يزرع غذاءه ويؤهل الحيوانات ويسوقها فى خدمته فخرج من ذلك الدور الذى عاش فيه عالة على الطبيعة ، واستطاع أن يوفر لنفسه حاجته من الغذاء بحيث تيسر لبعضه أن يتفرغ لأعمال غير أعمال اعداد الطعام أو جمعه مثل أعمال الفكر والصناعة والادارة ، مما زاد فى تمكنه من السيطرة على بيئته بما صار يصنعه من الآلات والأدوات والعدد ؛ وكان انتصاره الثانى على الطبيعة حين استطاع أن يكتشف النار وينشأ لنفسه بيوتا من الطين والحجارة لأنه بذلك استطاع أن يسيطر سيطرة تامة على محيطه المباشر فيعيش فى المناطق المتجمدة الشمالية مثلما يعيش فى خط الاستواء . وليس هنالك ما يدل على أن الانسان تقيد فى أنشاء الحضارة ببيئة معينة ، وانما هو استطاع ، بفضل ثقافته التى مكنته من السيطرة على الطبيعة ، أن ينشىء حضاراته فى بيئات متباينة ، فأنشأ حضارات فى المناطق الحارة ، فى الهند وفى جزر الهند الشرقية ؛ وأنشأها فى مناطق معتدلة ، فى العراق ومصر وايران وفى بلاد الاغريق

(٩) راجع كتابه : *Progress of Archæology*

والرومان ؛ واستطاع أن يحيا فى جزر المحيطات وفى أعالى الجبال وفى المناطق المنجمدة • وكل واحدة من هذه المناطق والأقاليم تختلف عن الأخرى اختلافا كبيرا فى البيئة والخصائص الجغرافية • ولقد بلغ تفوق الانسان فى الثقافة حداً جعل أثره فى البيئة أعظم من أثر البيئة فى حياته ؛ وان هذا الأثر لفي تزايد مستمر ، كلما تقدم الانسان فى ميدان المعرفة وتضلع فى العلوم وأتقن الفنون الآلية • فبالمعرفة والآلة استطاع الانسان أن يمخر عباب المحيطات ويركب الرياح ويجعل من البحر والمحيط واسطة اتصال بعد أن كانت حواجز قطيعة ؛ واستطاع كذلك أن يستخرج المعادن والنفط من جوف الأرض فيستخدمها فى زيادة سيطرته على الطبيعة وفى تسخير قواها لخدمته • وبفضل المعرفة والآلة استطاع الانسان أن يوسع أفق بيئته بحيث ضمت عالم المخلوقات التى لا ترى الا بوساطة المجهر وعالم الأجرام الذى لا سبيل الى ادراك نهايته •

ولقد كان سهلا فيما مضى ، أن يغفل المفكرون أثر الانسان وثقافته فى انشاء المجتمع وفى تنظيم حياته فيرجعونها الى الغريزة والجنس أو الى البيئة والعوامل الجغرافية ، ولكن امرا مثل هذا أصبح الآن بيّن الخطأ بعد أن بلغت قدرة الانسان فى السيطرة على البيئة واستغلال العوامل الجغرافية ومرافق الطبيعة هذا المبلغ من القوة والوضوح • وليس هناك شك فى أن المظاهر الطبيعية بما فيها البيئة

والعوامل الجغرافية من شأنها أن تلوح للانسان بما يقتضى عمله ، ولكن قدرة الانسان على ادراك مدلول ذلك فى تحقيق مقتضيات حياته ، منوطة بثقافته التى تعين له مدى حاجاته من جهة والوسائل التى يحققها بها من جهة أخرى . ولقد كانت المعادن فى جوف الأرض منذ زمان ، وكانت الكهرباء فى الوجود منذ الأزل ، لكن الانسان لم يكن يدرك حاجته اليهما أو ان يستطيع استغلالهما لفائدته حتى بلغت ثقافته درجة تيسر له فيها أن يدرك تلك الحاجة وان يتغلب عليها .

فالانسان وان كان يخضع لأحكام الطبيعة مثل سائر الحيوانات ، ولكنه المخلوق الوحيد الذى يحاول فى خضوعه للطبيعة أن يكتشف أسرارها ويسخر قواها لمنفعة نفسه . وما تقدمه فى الحقيقة الا مظهرا من مظاهر زيادة معرفته بأسرار الطبيعة ونمو قدرته فى تسخير قواها واستغلال مرافقها . وبفضل تقدمه فى هذا المضمار ـ وهو لما يزل فى مراحله الأولى ـ تيسر له أن يخلق البيئة التى تلائمه فيعيش حيثما يشاء ، وان يمشى فى مناكب الارض ، وان يخمر البحار ويحلق فى الجو وان يضيق حدود هذا العالم الفسيح ، وان يسخر قوى الطبيعة ويستغل خيراتها فى أقصى الشرق وهو فى أقصى الغرب .

ولعل خير شاهد على ضعف تأثير البيئة من دون تعاون الانسان ونشاطه ما أورده الفيلسوف « وليم جيمس » من وصف « كرايزا نوفسكى » لجزيرتي سردنية وصقلية ، قال : « ان هاتين الشقيقتين ،

الواقعتين في وسط البحر الأبيض المتوسط ، على بعد واحد من مقر الحضارتين اللاتينية القديمة والحديثة ، وعلى مقربة من مراكز حضارات الفينيقيين والاغريق والعرب في اسبانية ، واللتين يزيد امتداد ساحلهما على ألف ميل ، وفيهما من مظاهر الخيرات ما يثير كوامن النفس ، ومن خفايا المرافق الزراعية والمعدنية ما يقصر عنه الوصف ، بقيتا ـ بالرغم من ذلك ، نسياً منسياً ، لم يلتفت اليهما أحد مدة ثلاثين قرنا من تاريخ أوربة ... أن لهاتين الجزيرتين ألسنة بلا لغة ، وأخبار معارك بلا تاريخ ، وتقاليد بلا شرائع ؛ وفيهما عادة الأخذ بالثأر من غير مفهوم للعدالة ؛ لهما حاجات وفيهما ثروة وليس لهما تجارة ؛ فيهما أخشاب وموانى وليس لهما سفن ؛ لهما أساطير بدون شعر ، وجمال بدون فن . ان هاتين الجزيرتين الواقعتين في مراكز الحضارة الأوربية ، بحيث لا يسع أساطين الجغرافية الا الاشارة اليهما ، لأول وهلة ، كخير مكان لتحقيق التقدم المادي والفكرى والسياسي والتجاري ، قد ظلتا في سبات عميق ، وكأنهما عقدتان على هامش التاريخ »[١٠] لا لسبب الا لافتقارهما الى الانسان العامل .

ولعل القارىء لو أعاد النظر فيما أوردنا من آراء القائلين بنظرية البيئة في ضوء الوضع الراهن للحضارة لرأى أن تلك الآراء لم تعد تستقيم مع الواقع ، بعد أن انعكست الآية فانتقل مركز الحضارة

(١٠) James. ، ص ١٨٥ .

من الشرق الاوسط ومن حوض البحر الأبيض المتوسط الى مناطق أوربة الوسطى والشمالية والى القارة الأميركية ، وكانت فيما مضى مواطن البربرية والهمجية ، ولم يكن المفكرون الأولون يرون فيها ما يساعد على نشوء الحضارة • ولم يعد عسيرا الآن ـ فى ضوء التقدم العلمى الذى تحقق للانسان ، وما يتوقع أن يتحقق له بعد أن تتم السيطرة على الطاقة الذرية فيستخدمها فى انشاء العمران بدلا من اتخاذها سلاحا للهدم والدمار ـ أن تنقلب مجاهل أفريقية الى ميادين جديدة للحضارة وتتحول الصحارى الخالية الى مراكز عامرة بالحياة والمدنية •

ولعلنا نستطيع الآن ، أن نميز فى اتجاهات الفكر ، بخصوص مقومات المجتمع ، ثلاث مذاهب : الأول هو مذهب المحافظين والعناصر الرجعية التى تعتمد المثالية وتميل الى تأكيد عامل الوراثة وما ينجم عنه من تمايز الأجناس ، باعتبار أنه العامل الأساسي الحاسم فى تقويم المجتمع ، وهو الاتجاه الذى ناقشناه فى الفصل السابق ؛ والثانى هو مذهب العناصر المعتدلة التى تميل الى « الطبيعية » المترددة بين المثالية والمادية ، والتى تعتبر مؤثرات الطبيعة ، وبصورة خاصة عامل البيئة والمؤثرات الجغرافية ، العامل الرئيسي الحاسم فى تقويم المجتمع ، وهو المذهب الذى خصصنا لبحثه هذا الفصل • أما المذهب الثالث فهو الذى ترجحه العلوم الاجتماعية التى تذهب الى القول بان عامل الثقافة

هو العامل الأساسي الحاسم فى تقويم المجتمع ، وهو كذلك بوجه عام ، مذهب جميع الاشتراكيين ، وخصوصاً الذين يأخذون بمذهب المادية التاريخية التى تعتبر الطبيعة والعوامل الجغرافية فى جملة الشروط الأساسية والثابتة فى تقويم الحياة الاجتماعية وفى تطورها ، وان لم تكن العامل الرئيسي الحاسم فى تعيين هيئة المجتمع ونظامه وتطوره .

والواقع ، ان البيئة الطبيعية والعوامل الجغرافية وان كانا من العوامل الفعالة فى قيام المجتمعات وفى تعجيل أو تأخير مجرى التطور فيها ، الا ان أثرها لا يمكن أن يعتبر حاسما ، لأن تطور المجتمع يجري بصورة أسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافى وتغيراته . فلقد مرت أوربة مثلا ، فى خلال الثلاثة آلاف سنة الأخيرة ، فى مراحل اجتماعية ثلاثة هي مرحلة النظام القائم على الرق ، ومرحلة نظام الاقطاع ، ومرحلة الراسمالية ، وهي اليوم على أبواب المرحلة الرابعة ـ مرحلة الاشتراكية التى تحققت فعلا فى الاتحاد السوفياتى ـ فى حين أن ظواهر الوسط الجغرافى فيها لم تتغير فى خلال هذه الفترة من الزمان ، وان صح أنه طرأ فيها بعض التغير فانه طفيف بحيث ان الجغرافيين يغفلون ذكره . ذلك لأن أي تغير ظاهر فى الوسط الجغرافى يقتضى له ملايين من السنين فى حين تكفى بضع مئات من السنين لحدوث تغيرات خطيرة فى نظام الحياة الاجتماعية . ولذلك لا يصح أن يعتبر الوسط الجغرافى عاملا أساسيا وحاسما فى تقويم

المجتمع وتطوره ، لأن العامل الذى لا يطرأ عليه التغير خلال عشرات الألوف من السنين لا يمكن أن يكون السبب الأساسي فى التغيرات التى تتعاقب خلال بضع مئات من السنين . ولا يمكن كذلك ، أن يفسر قيام المجتمعات ونشوء النظم وتطورها ، على أساس مسألة السكان ، بالرغم من أن وجود الناس هو من جملة العوامل الأساسية لقيام الحياة الاجتماعية لأنه لا يمكن أن تقوم حياة اجتماعية من دون وجود حد أدنى من الناس ، وبالرغم من أن نمو السكان يؤثر فى التطور الاجتماعي فيجعله عسيراً أو يسيراً وسريعاً أو بطيئاً ولكنه لا يمكن أن يعتبر العامل الأساسي الحاسم لأنه ليست هنالك أدلة تاريخية أو واقعية تثبت لنا أن تزايد النفوس مثلا ، كان سبباً قائماً بذاته فى سيرة المجتمعات . ولو كان نمو السكان عاملا أساسيا فى النظام الاجتماعي وفى تطوره ، لترتب على ذلك بالضرورة أن يرافق ازدياد كثافة السكان تغير فى هيئة المجتمع ونظامه . بينما يثبت لنا الواقع ، أن الصين وعدد نفوسها يبلغ أربعة أضعاف نفوس الولايات المتحدة بقيت مستقرة فى نظام نصف اقطاعي فى حين أن الولايات المتحدة بلغت فى فترة قصيرة ، المرحلة العليا للنظام الراسمالى . وكثافة النفوس فى بلجيكة مثلا ، تزيد على كثافة النفوس فى الولايات المتحدة بنسبة تسعة عشر ضعفا ، وتزيد على كثافة النفوس فى الاتحاد السوفياتى بنسبة ستة وعشرين ضعفا ، فى حين أن مجتمع الولايات المتحدة يقوم

فى مستوى أرقى من مستوى المجتمع البلجيكى ، وفى حين أن مجتمع الاتحاد السوفياتى قد تجاوز المجتمع البلجيكى بمرحلة تاريخية كاملة . ولهذا لا يصح أن يعتبر موضوع السكان ـ النفوس ـ ، العامل الأساسي الحاسم فى تعيين هيئة المجتمع ونظامه وتطوره .

وهكذا ينتهى بنا البحث فى موضوع البيئة وأثرها فى تقويم المجتمع الى انها من العوامل المؤثرة ، من دون ريب ، ولكنها ليست العامل الرئيس الحاسم . وان أثرها يتناقص كلما تقدم المجتمع وأخذ بأسباب الحضارة .